

معالم حضارية في القرآن الكريم

بقلم د/ محمد زعراط

إن الصيرورة الحضارية لموكب البشرية الهادر عبر التاريخ رسمتها آيات الاستخلاف منذ بدأت قصة استخلاف آدم عليه السلام في الأرض، إلى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا، إذ يتوقف صنع الحضارات على المنهج الذي يتجانس مع الفطرة الإنسانية، ومدى حرصهم على تطبيقه. فلقد مرت الإنسانية أثناء مسيرتها الطويلة بفترات أنارت فيها جوانب حياتها بنور الله، فدانت لها المعمورة، وبنت أروع المدينيات وذلك بفضل سنة من سنن الحياة، تتحكم في قيام الحضارات، وهي تدور مع الصلاح. ففي قوله تعالى : "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"⁽¹⁾. والصالحون كما هو وارد عند "محمد عبده" هم الذين يصلحون لإقامة العدل والحق وسائر شرائع الله وسنته في العمران⁽²⁾. وهو ما يسميه علماء الاجتماع بنفاذ الأصلح أو الأمثل في كل تنازع. وعلى العكس من ذلك فقد مرت بالبشرية فترات حالكة عصفت بها إلى دياجير الظلمات فأبعدتها وخطفتها صروف الدهر، وطمع فيها خصومها، وأصاب أهلها سوء

العذاب "وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"⁽³⁾. وقوله تعالى :
"وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعداً"⁽⁴⁾. والمعنى
ههنا أن الحضارات التي زالت، لم تسقط فجأة. وإنما كان الانهيار مرحلة
مناسبة تجمعت فيها أسباب الهلاك.

لقد ظل الإنسان عبر مسيرته الحضارية يستمد قوته من شريعة السماء إذ
كان الوحي الإلهي هو النور الهادي لكل حضارة. وكان الأنبياء في هذه
الحضارة قمة المثالية الروحية والمثالية العملية المؤيدة بالوحي. حتى إذا اجتمعت
المقومات الأساسية إنطلق المجتمع في البناء ثم لا يلبث أن يعقب ذلك ازدهار
يغوي الإنسانية بالجنوح إلى نسيان ذاتها والنكوص عن حمل أمانة الخلافة في
الأرض ويتطور النسيان إلى جحود ونكران ثم إلى انحراف وانحلال قال تعالى :
"أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس، كمن مثله في
الظلمات ليس بخارج منها"⁽⁵⁾. وقوله تعالى : "أو لم يسيروا في الأرض فينظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض
وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كان الله ليظلمهم
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"⁽⁶⁾.

وهكذا تتعاقب الحضارات على الإنسان في دورات متتابعة فتارة نحو
الأفول، وطورا آخر نحو التقدم، وتظل حضارة القرآن بمقوماتها التي تستمد

شموخها من توجيهاته، وقد رصد القرآن الكريم أمثلة لحضارات متعاقبة، ومنها حضارة عاد وثمود والحضارة السليمانية والسبئية.

أ- حضارة عاد.

فأما عن حضارة عاد، فقد وردت في مواضع من القرآن، وتكررت في سياقات لتظهر بمظهر أفضل أثناء مطالعة القارئ لكل سورة في القرآن، وأجمل الآيات التي تطرق هذا الوصف رصدها بسورة الشعراء وكذا هود، الأعراف، الأحقاف والفجر، ففي قوله تعالى : "كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعملون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم"⁽⁷⁾.

ففي الآية أنموذج لحضارة استجمعت عناصر البناء والعمارة، وهي كما يصورها القرآن حضارة زراعية فبعث الله فيهم "هودا" نبيا مذكرا قومه بأن تقوى الله هي أساس استمرار النعمة، ولكن القوم أصروا واستكبروا وقالوا : "سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين"⁽⁸⁾. وكانت النتيجة التي لا محيض عنها قوله تعالى : "وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية"⁽⁹⁾.

لقد لجوا في عتو ونفور حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية، وهو هنا موضع للعظة والاعتبار.

وإذا تأملنا قوله تعالى : "أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون"⁽¹⁰⁾. إلى قوله تعالى : "ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد"⁽¹¹⁾. فإنه يستنتج أن عناصر تلك الحضارة تمثلت في فن العمارة وهندسة المباني وعلى نحو يبهر الأبواب. قال ابن كثير "الريع اختلف المفسرون بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جوار الطرق المشهورة... وروى أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة قرب دمشق- من تشييد البنيان، قام في مسجدهم خطيبا، فاجتمع له أهل دمشق، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون، ألا تستحيون، تجمعون مالا تأكلون وتبنون مالا تسكنون وتأملون مالا تدركون إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون وينون فيوثقون ويأملون فيطيلون، فأصبح عملهم غورا وجمعهم بورا، ألا إن عاد ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشتري مني عادا بدرهمين"⁽¹²⁾.

ويذهب جورج زيدان إلى أن عادا من الأمم الأرامية، ولذا سميت عاد، إرم. كما سميت أيضا ثمود، إرم وأنها ليست مدينة، وأن الظن بأنها مدينة جعل المؤرخين يبالغون في وصفها⁽¹³⁾. وهو أمر لا يستسيغه العقل، لأن القرآن أخبرنا بأن عادا قبيلة، ولا مانع أن تكون المدينة سميت باسم عاد رئيس القبيلة التي بناها أو باسم القبيلة نفسها وهي، عاد.

ب-ثمود :

أما عن، ثمود، فقد ورد ذكرها في القرآن أحد عشر مرة في سور متعددة : وهي الأعراف، هود، الحجر، الشعراء، النحل، فصلت، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الشمس. وقد طغى عنصر التكرار لما له من تأثير متجدد مع مطالعة القارئ لهذه الآيات، فبعث في النفس العظة والاعتبار بما حل بالأمم البائدة، التي هي وجه من وجوه الإعجاز التاريخي.

وتتجلى عناصر تلك الحضارة الوثنية في بناء القصور، وتلك البيوت على الشكل الذي وصفت به -عاد، يشير قوله تعالى : "إذا جعلكم خفَاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض، تتخذون من سهولها قصورا، وتنحتون الجبال بيوتا، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين"⁽¹⁴⁾. مما يبرز معالم حضارية، امتازت بها ثمود مع تحذير شديد بعدم الإفساد "ولا تعثوا في الأرض مفسدين"⁽¹⁵⁾. وقد بعث الله فيهم النبي صالحا وهو منهم ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا"⁽¹⁶⁾.

وهكذا تبين الآيات أن ثمودا كانت بين الشام والحجاز⁽¹⁷⁾. وأن النبي صالحا، دعاهم إلى نبذ ما كان يعبد آباؤهم فكذبوه وطالبوه بآية تدل صدق دعوته فأجابهم هذه ناقة الله لكم فيها آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم"⁽¹⁸⁾. وقوله تعالى : "فكذبوه

فعقروها" (19). فأخذتم الصبيحة ونجا الله صالحا والذين آمنوا معه. وتعد حضارة النبي-داود وابنه عليهما السلام حضارة وافرة الظلال في تواصلها واستمرارها لتدخل عنصر الإعجاز السماوي يدل على ذلك قوله تعالى: "ولقد آتينا داود وسليمان علما. وقوله تعالى: "الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال: "يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل العظيم" (20).

ولما كان العلم يستمد مرجعيته من الله فهو علم مأمون العواقب لا يلحق الضرر بالخالق، لذا استخلف الله تعالى الإنسان في الأرض وزوده بمقومات البناء الحضاري لتكتمل مسيرته في هذا الكون، ومن خصائصه عدم إثارة الضرر في النفس، مهما حقق من تقدم لأن الأساس تطوره، التواضع، فقد ورد على لسان-داود- عليه السلام: "الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين" (21).

وكان منطق سليمان: "هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر" (22). مما يوحي بتواضع الأنبياء أمام قدرة الله في بسط النعمة على عباده الشاكرين. وكان -داود- عليه السلام جنديا في جيش طالوت. المؤمن الذي كان يحارب جالوت، الباغي، وقد نصره الله على جالوت، رميا بالحجارة، وزوجه طالوت ابنته بعد ذلك. وأتاه الله الملك في مشارق الأرض ومغاربها، قال صاحب الكشف: "جالوت جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد،

وكان -أيس- أبو داود، في معسكر طالوت مع ستة من بنيهِ-وكان داود سابعهم- وكان صغيراً يرعى الغنم⁽²³⁾. مما يوحي أن داود عليه السلام كان محارباً شجاعاً. قد انعم الله عليه بالملك والنبوة في قوله تعالى : "ولقد آتينا داود منا فضلاً"⁽²⁴⁾. وفي مقام آخر، "ولقد آتينا داود وسليمان علماً"⁽²⁵⁾.

إن من خصائص هذه الحضارة، أنها تقوم على الجهاد في سبيل الله، وأنها حضارة إعجاز إلهي : "إنا صخرنا الجبال معه يسجدن بالعشي والإشراق، والطير محشورة كل له أرباب"⁽²⁶⁾. -أها حضارة تستثمر ألوانا من المعارف لتعليمه منطق الطير، قال تعالى : "ورث سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير"⁽²⁷⁾.

-أها حضارة صناعية، فقد ألان الله لداود الحديد ليصنع منه دروعاً محكمة دون أن ينصهر في النار وهو راي جمهور المفسرين. قال تعالى : "وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم"⁽²⁸⁾.

-أها حضارة قوية البنيان : "وشددنا ملكة" أي قويناه بالهيبة وكثرة الجند⁽²⁹⁾. -أها حضارة تستمد عناصرها من السماء : "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"⁽³⁰⁾.

لقد امتزجت في هذه الحضارة المادة بالروح، وهي منسجمة في منهجها مع طبيعة الإنسان، فأسعدت البشر، وتألفت في الآفاق. فصورها القرآن خير

تصوير : "ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أرببي معه والطير وأنا له الحديد أن أعمل سادات، وقدم في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير"⁽³¹⁾.

قال ابن كثير : "يُخبر سبحانه عما انعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام بما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك والجنود ذوي العدة والعدد، وما منحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سَبَّحَ تَسَبَّحَ معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات... وفي الصحيح أن رسول الله سمع صوت أبي يقرأ في الليل فوقف واستمع لقراءته ثم قال عليه الصلاة والسلام، لقد أوتي هذا زممار من مزامير آل داود"⁽³²⁾.

إن الأنبياء هم رسل أديان، ولكنهم أيضا، مؤسسوا حضارة واجتماع وأسلوب حياتي جديد. عرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع بالمساواة بين الأفراد، وفي الأخلاق بمراقبة الضمير والأمانة⁽³³⁾.

وإذا كان القياس الزمي في مرجعيته التاريخية يحدد النبي -إبراهيم- بشيخ الموحدين لتفشي الوثنية في عهده فإن النبي -لوطا- قد واجه تفشي الناحشة في قومه والنبي -شعيبا- حارب الغش ودعا قومه إلى الوزن بالقسطاس المستقيم. لأجل ذلك اضفى الله على رسله صفة الأنسية وزودهم بالغرائز البشرية، فكانوا في مستوى ما احتيروا لأجله وساروا بها وفق المنهج الذي ابتغاه الله لهم. ليصلوا إلى غاية الكمال الروحي والجسماني⁽³⁴⁾. "وما

أرسلنا من قبلك من المرسلين، إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق" (35). وقال تعالى : "وما المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أني يوفكون" (36).

لقد لقي الأنبياء في دعوتهم صنوف البلايا من أقوامهم الذين كذبوهم وعتوهم بما لا يليق بمقامهم. ورغم المعجزات التي حلوها معهم، فلم تكن ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتما. من ذلك أن موسى عليه السلام لما جاء قومه بالمعجزات. "وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم، كلوا واشربوا من مرنق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين، وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وأنتم تنظرون" (37). فطلبوا إليه مالا قبل له به وهو رؤية الله تعالى وهو أمر يبرز صفة الجحود والتعنت وعدم الإقرار بالحق حين يأتيهم.

وكان من أمر عيسى عليه السلام أنه لما أحسن من قومه بني إسرائيل الكفر والفساد والمقاومة بالإيداء، رغم ما أراهم من آيات الله توجه إلى البحث عن أهل الإستعداد النفسي الذين لا يتوانون لحظة عن نصرته. "فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال : من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار

الله⁽³⁸⁾. وعن صالح : "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض"⁽³⁹⁾.

وحكاية عن شعيب : "ويا قوم لايجرمكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد"⁽⁴⁰⁾. وكان إبراهيم قدوة في الحلم والرفقة "إن إبراهيم لحليم أواه"⁽⁴¹⁾. وكان يوسف قدوة في العفو رغم ما لحقه من أذى إخوته : "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"⁽⁴²⁾.

الهوامش

- 1- الأنبياء ص105.
- 2- أنظر : توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية؛ ص334 ما أولى.
- 3- النحل ص33.
- 4- الكهف ص59.
- 5- الشورى ص52.
- 6- الروم ص9.
- 7- الشعراء ص123-135.
- 8- الشعراء ص136.
- 9- الخاقعة ص6-7.
- 10- الشعراء ص136.
- 11- الفجر ص7-8.
- 12- ابن كثير: اسماعيل ابو الفدا القرشي : قصص الأنبياء ج/274.
- 13- أنظر : توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن : ج1. ص163.

- 14-الأعراف ص74.
- 15-البقرة ص60.
- 16-النمل ص45.
- 17-أنظر: المرجع نفسه: ج.1. ص164.
- 18-الأعراف ص72.
- 19-الشمس ص14.
- 20-النمل ص15-16.
- 21-النمل ص15.
- 22-النمل ص40.
- 23-الزمخشري : محمود جار الله: الكشف عن حقائق التترييل، مصر 1925.
- 24-سبأ ص10.
- 25-النمل ص15.
- 26-البضاوي : علي بن عمر بن محمد : أنوار التترييل وأسرار التأويل، ج2، 176، بيروت-لبنان.
- 27-النمل ص16.
- 28-الأنبياء ص80.
- 29-ابن كثير : المصبر السابق، ج.1. ص275.
- 30-الأنبياء ص105.
- 31-سبأ ص10-11.
- 32-أنظر : أبو الحسن علي الندوي: النبوة والأنبياء، ص19. بيروت. 1387هـ.
- 33-أنظر : أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص625-626. مصر 1953.
- 34-المنار (تفسير القرآن) : محمد رشيد رضا، ج3. ص391، مصر 1967.
- 35-الفرقان ص20.
- 36-المائدة 77.
- 37-البقرة ص60.
- 38-آل عمران ص68.
- 39-الأعراف ص78.

40-هود ص 89.

41-هود ص 74.

42-يوسف ص 91.